صفة الكلام بين الحنابلة

والأشاعرة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

أود أن أتكلم عن صفة الكلام بين الحنابلة والأشاعرة بشكل مختصر ولو أن الموضوع طويل الذيول ومتشعب ولكن سأحاول بقدر الإمكان أن أختصر…

بداية … ما هو الكلام ؟

عرفا : الكلام هو الحروف المسموعة ، عندما نقول فلان تكلم أي : صدرت منه حروفا مسموعة. هذا في العرف

في **اللغة** الكلام : هو اسم وفعل وحرف جاء لمعنى.

وكذلك في نصوص الوحيين ، السنة والقرآن ، أيضا الكلام فيهما حروف مسموعة وسنثبت بالأدلة صحة هذا الموقف.، فالحنابلة يقولون الكلام حقيقته هو : الحروف المسموعة ، ولا نعدل عن هذه الحقيقة إلا بدليل وقرينة، الآن ننتقل إلى الأشاعرة ، ماذا يقولون الأشاعرة ؟

الأشاعرة يقولون : الكلام صفة ذاتية قائمة بذات الله ، ليست بجرف وصوت ، إنما هي المعنى النفسي القديم.

أين يقع الإشكال ؟ ، طبعا يستدلون بأدلة ، يعني الأشاعرة يقولون : هو معنى قائم بالنفس - وهو المدلول- ، وألفاظ حادثة – دالة على المدلول القديم -؛ يعني القرآن الذي بين دفتي المصحف الذي أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا مخلوق.

لماذا مخلوق ؟ لأنه : ألفاظ وكلمات ، وحقيقة الكلام هو : المعنى القائم بالنفس.

إذن هم لا يسلمون أن حقيقة الكلام : هو الحروف المسموعة.

أين الإشكال ؟ ، لنأتي إلى نصوص الشريعة ، يقول الله عز وجل: {فأجره حتى يسمع كلام الله} ، إذن الكلام هو الحروف المسموعة ، ليس هناك قيد هذا على الإطلاق ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : (منعوني قريش أن أبلغ كلام ربي) ، ما هو كلام ربي ؟ هو الحروف المسموعة ، حتى في بعض الأحاديث قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة عندما تكلموا في الصلاة : (هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس) ، أي من الحروف التي يتكلم بها الناس.

إذن الكلام حسب نصوص الوحيين ، هو الحروف المسموعة ، بماذا استدل الأشاعرة ؟ ، استدلوا مثلا بقول سيدنا عمر بن الخطاب : (زورت في نفسي مقالة) ، قالوا : هذا دليل على أن هناك معنى نفسي ، وان الكلام يطلق على المعنى النفسي.

الرد :

أولا : زورت – في نفسي ـ ، هناك قرينة ، ماهي القرينة ؟ ، "في نفسي"؛ إذن هنا القرينة جعلتنا نعدل عن حقيقة الكلام إلى المجاز.

ثانيا : زورت في نفسي مقالة ، يقول الأصمعي : (أي هيأت ورتبت الكلام الذي سأقوله). انتهى.

الأشاعرة أيضا يقولون أن الكلام الذي هو المعنى القائم بالنفس هو الأمر والنهي وخبر واستخبار ووعيد.

الرد :

الامر والنهي متضادان ، فيستحيل اجتماع الضدين في محل واحد ، هذا مستحيل عقلا ، أن يكون الأمر هو النهي ! ، لأنهم هم يقولون أن المعنى النفسي واحد غير متبعض ولا متعدد ، حسنا الأمر والنهي يستحيل اجتماعهما؛ لأن الضدين يستحيل اجتماعهما في محل واحد ، هذا أول إشكال على الأشاعرة.

الإشكال الثاني : هم يقولون أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس ، حسنا ، الآن الإنسان الساكت هل نسميه متكلم ؟! ، لأن الساكت تقوم في نفسه بعض المعاني ، هل نسميه هنا متكلم ؟ ، وما الفرق بين الساكت والمتكلم ؟ ، يستحيل ان يكون ساكت ومتكلم في نفس الوقت ، وكذلك الأخرس وهو الذي لا يستطيع الكلام ، عندما نقول فلان أخرس ، لماذا أخرس ؟ ، لأنه لا يستطيع الكلام لا تصدر منه الحروف والأصوات ، لكن هذا الأخرس تقوم في ذاته وفي نفسه بعض المعاني ، فلماذا لا يسمى متكلما ؟! ، إذن هذه من الإشكاليات التي ترد على الأشاعرة.

أيضا من الإشكاليات التي ترد على الأشاعرة ، قوله عز وجل في محكم التنزيل : {وكلم الله موسى تكليما } ، فأتى بالمصدر ليؤكد على وجود مكلم ومتكلم ، حسنا ، الآن ما الذي يستمع إليه موسى عليه السلام ؟ ، السماع يتعلق بماذا ؟ ، يتعلق بالحروف المسموعة ، قال الأشاعرة : لا ، سمع موسى الكلام النفسي ، حسنا ، هل سمع كل المعنى النفسي ؟ ، إن قال سمع كل المعنى النفسي فقد نقض الآية الكريمة : {تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك} ، وإن قيل سمع بعض الكلام النفسي فقد جعلوا الكلام النفسي متبعض ومتعدد وهذا ما عابوا به على الحنابلة – وهو نقضا لمذهبهم ـ.

الله عز وجل يقول : {فاستمع لما يوحى} ، كيف يكون الاستماع ؟ ، قالوا الإفهام ، الإفهام إنما يكون متأخر عن الاستماع ، يعني أنت ربما تستمع للشيء لكن لا تفهمه إلا متأخر ، فالاستماع يتعلق ببنية الإنسان.

قولهم ان هناك دال ومدلول ، أي أن القرآن دال على المعنى القديم.

الرد :

نأتي إلى الآية الكريمة : {وأقيموا الصلاة} ، هذا الآية دالة على المعنى القديم – بعزمهم ـ ، حسنا ، وقوله تعالى : { ولا تقربوا الزنا } هذه أيضا دالة على معنى قديم ، إذن هذه الأمور الدالة تدل على مدلولات مختلفة ، فكيف يقال المدلول واحد ! ، أو أن المدلول هو معنى نفسي واحد لا يتعدد ، خذ كل آية من القرآن لابد ان تدل على مدلول مختلف ، طبعا هم يقولون بأن هذه تعلقات والتعلقات هي أمور اعتبارية ، ليس لها وجود خارج الذهن ، الذهن يعقلها فقط ، لكن في الخارج لا وجود لهذه التعلقات ، فلا وجود للأمر ، وهذا مستحيل؛ لم يزل آمرا ناهيا متكلما ، فالأمر والخبر والاستخبار هذه أمور وجودية حقيقية ، نص على ذلك الإمام الغزالي وابن أبي شريف ، فهم وقعوا في تناقض ، يعني هذه الأمور لا يمكن إنكارها ، لا يمكن أن تكون معنى واحد ، لا يمكن أن يكون الأمر والنهي بمعنى واحد ، فلا بد أن يقولوا بتعدد المعاني ، لكن هم يقولون بالتعلقات والتعلقات اعتبارية ليس لها وجود في الخارج وهذا أيضا ما ينص عليه الأشاعرة.

من الإشكالات التي ترِد على الحنابلة ، أن الحروف تتعاقب والتعاقب يدل على انها حادثة فكيف تقولون كلام الله قديم ، طبعا الذي رد على هذه الشبهة ليس الحنابلة فقط ، بل كبار أئمة الأشاعرة كالعضد الإيجي وجلال الدين الدواني ، وابن كمال باشا ، والغرسي ، وكثير من أئمة الأشاعرة.

الرد :

لماذا تتعاقب الحروف ؟؛ لأننا نتكلم بآلة التي هي حنجرة ولسان فيستحيل أن نتلفظ أو نتكلم بجميع الحروف لفظة وضربة واحدة ، فلا بد ان يظهر الحرف ثم ينقضي ويظهر الحرف الذي يليه ثم ينقضي ويظهر الحرف الذي يليه ثم ينقضي ، إذن لقصور الآلة ولأننا نتكلم بآلة ومخارج وأدوات أتى الكلام متعاقب ، لكن في حق الله فهو منزه عن الآلات والأدوات والحنجرة ، إذن انتفى التعاقب في كلام الله عز وجل.

من الإشكالات التي ترِد على الأشاعرة في صفة الكلام : هو التناقض في وصف المعنى النفسي ، فهناك من يقول المعنى النفسي هو الخبر لكي يخرج من مسألة التعدد ، ويستحيل ان يكون المعنى النفسي خبر ، لماذا ؟ ، لأن الخبر إذا كان مجرد عن الألفاظ لا يختلف عن العلم ، ما هو الخبر ؟ ، أني اخبرك بشيء ، كما اني أعلمك بشيء ، قالوا : الخبر يحتمل الصدق والكذب ، قلنا : هذا في حق الإنسان والله منزه عن ذلك ، فعاد الخبر إلى العلم ، فحتى في هذه ترد عليهم الإشكالات في جعل ان الكلام هو المعنى النفسي وهو الخبر ، حتى الآمدي قال انا أجد مشكلة في اتحاد معاني الأمر والنهي وحلها ليس عندي ، وهذا دليل على صعوبة المسألة.

بعض الأقوال الواردة في القرآن و السنة :

السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : (ما بين دفتي المصحف كلام الله) ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (منعتني قريش أن أبلغ كلام الله) ، والله عز وجل يقول : {فأجره حتى يسمع كلام الله}.

فنحن نقف على الأثر الذي ورد دون أن نختلق مسألة الدال والمدلول ونقع في كل هذه الإشكالات وغيرها ، فالقول بمسألة التعاقب فهذه مسألة منفية ، وأيضا من الإشكالات التي تقع على القول بالكلام النفسي هو أن جميع الآيات تدل على مدلولات مختلفة ، البيجوري في شرح جوهرة التوحيد يقول : " هناك مدلول قديم وهناك مدلول حادث" ، وهذه أيضا لكي يفر من بعض الإشكالات التي ترِد عليه ، وعندما تخلق الكلام كما يقولون أن الله هو الذي خلق هذا الكلام ، فعندما تخلق الكلام في محل فيكون هذا الكلام منسوب إلى المكان المخلوق فيه ليس لله عز وجل ، لأن الكلام صفة المتكلم.

قالوا بأن الصوت هو اصطكاك الأجرام ، يعني لا يظهر إلا عن طريق الهواء المنقطع.

الرد :

الحنابلة قالوا ليس هذا هو حد الصوت ، لأن السموات تتكلم من غير اصطكاك أجرام ، الجلود تتكلم من غير اصطكاك أجرام ، الحصى يسبح من غير اصطكاك الأجرام ، إذن ما هو حد الصوت عن الحنابلة ؟ ، الصوت : هو ما يتحقق سماعه وما لا يتحقق سماعه البته ليس بصوت ، إذن هنا خرجنا من مسالة كونه اصطكاك أجرام ، فليس لهم حجة بأن يقولوا أن الصوت هو اصطكاك أجرام.

أيضا من الإشكاليات أنهم يقولون : أنتم تقولون – أي الحنابلة ـ : أن كلام الله حلف المصاحف ، وحلف الورق.

فيقولون هل الورق قديم ؟ ، هل المصحف قديم ؟ ، طبعا هذا كلام متهافت لا يقول به طفل فضلا عن أن يقول به عالم !

الرد :

أولا : الورق حادث ، والحبر حادث ، وهذا ما يقولونه نسبة للحنابلة لا يقوله رجل عاقل ولا يصح أن ينسب للحنابلة.

ثانيا : الكلام كما قال ابن الزاهوني : "صفة متعدية للسمع لا على سبيل النقلة القاطعة" ، يعني لا يحل في الأشياء لا يحل في المصاحف ، يعني مثلا : عندما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات) فالكلام صفة المتكلم ، حسنان إذا فتحنا البخاري ووجدنا إنما الأعمال بالنيات ، هل هذا أيضا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ، هل نقول أن كلامه حل في الكتاب البخاري ؟!! وهو تكلم به قبل ألف وأربعمئة سنة ، يستحيل انه حل في الورق وفي صحيح البخاري ، فكيف يقال هذا الكلام ' إذن لو افترضنا أن الله لم يخلق حبرا ولا ورقا هل هذا سيلغي وجود القرآن ؟ ، أبدا فالقرآن نزل على جبريل عليه السلام وسمعه سينا محمد صلى الله عليه وسلم دون أن يكتب في قراطيس ، أنا عندما أقول مثلا {الحمد لله رب العالمين} ، فلا يوجد شخص عاقل يقول أن هذا ليس كلام الله لأن تكلم به رجل بلسانه وشفتيه ، فماذا سيقال عن هذا الرجل إن قال ذلك ؟ سيقال عنه كافر قطعا ، لأنه نسب الكلام للمتكلم والكلام يُنسب إلى من قاله مبتدئا لا من قاله مبلغا، الله عز وجل يقول : { لا تحرك به لسانك لتعجل به] ، إذن (به) تعود على القرآن فلا نقول أن القرآن حل باللسان ، هذا أمر لا يقول به عاقل ، فمشكلة الأشاعرة أنهم وقعوا تحت سطوة المحسوسات ، لم يستطيعوا التجاوز إلى المعقولات ، فمثلا الله عز وجل يقول : {فإذا قرأ القرآن فاستمعوا أليه وأنصتوا } ، فنحن نستمع إلى من ؟ نستمع إلى الإمام او القارئ ، الله عز وجل سمى هذا الاستماع

استماع إلى القرآن ، قال عز وجل : {قل اوحي إلي أنه استمع نفر من الجن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا} ، هم سمعوا ماذا ؟ سمعوا تلاوة ، نحن لا نقول أن حركات العباد وحركة ألسنتهم قديمة ، لا بل حادثة ولكن يظهر بها القرآن الكريم ، فمثلا أن الآن معلم وأدرس مادة الجيولوجيا فعندما أقول للطلاب الصخور تنقسم إلى صخور نارية ورسوبية ومتحولة ، هذا علم أديته إلى مجموعة طلبة ، هل يعني هذا أن العلم الذي أديته إليهم انفصل عن ذاتي وحل في ذوات الطلبة ! ، إذا انفصل عن ذات فهذا يعني أني أصبحت جاهلا به لا يمكن أن أستعيده !.

انتهى كلام الأستاذ / مشعان الرخيمي جزاه الله عنا كل خير.

كتبه / مازن خميس جيرة ، لا تنسونا من دعائكم.